سياسة دولة صكتو تجاه اللغة العربية في القرن الثالث عاشر الهجري من خلال كتاب: "سرد الكلام في ما جرى بيننا وبين عبد السلام" لأمير المؤمنين محمد بللو.

محمد أرزكا طنزاكي

الملخص:

كتاب سرد الكلام من مؤلفات أمير المؤمنين محمد بللو، ثاني أمراء دولة صكتو وأحد القادة في الحركة الإصلاحية التي أدت إلى قيام الدولة في المنطقة التي كانت تعرف ببلاد هوسا، في القرن الثالث عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي). ولقد ثبت في التاريخ أن هذه الدولة اتخذت اللغةَ العربيةَ لغتها الرسمية، ولكن أهمية هذا الكتاب تكمن في أنه يقدم لنا وثائق تاريخية توقفنا على بعض الممارسات العملية من شأنها أن تعطينا صورة تطبيقية لسياسة الدولة تجاه اللغة العربية، وذلك لأن السياسة اللغوية للدول تتبلور من خلال الإجراءات العملية التي تتخذها تلك الدول تجاه اللغات المعنية. فإن الكتاب وثيقة تاريخية تعبر عن أحداث معينة وقعت في تاريخ الدولة. وإضافة إلى ما يتضمنه من السرد لتلك الأحداث، فإنه يحتوي على نصوص لغوية في شكل المكاتبات بالرسائل بين الشخصيات ذات الأدوار البارزة في تلك الأحداث، وتلك النصوص التي يبلغ عددها عشر رسالةً مكتوبةٌ كلها باللغة العربية الفصيحة وبعضها متخللة بأبيات شعرية منقولة ومنشأة، وفي ذلك إشارة واضحة إلى مكانة اللغة العربية في تلك الدولة في الفترة الزمنية المذكورة.

١. السياسة اللغوية للدولة

كون اللغة أهم وسائل التواصل بين بني البشر أعطاها مكانة ذات أهمية كبيرة في حياة الإنسان. فأصبحت ذات دور أساس في حياة الأمم، اجتماعيا ودينيا وفكريا وسياسيا. كما أصبحت الدول تهتم بها وتُعنى بتنظيم شئونها من تعليم إلى استخدام وتوظيف في جوانب الحياة المتعددة.

وقد أرادت حكمة الخالق سبحانه وتعالى أن تتعدد اللغات وتختلف بحسب احتلاف الأقوام كما أشار إلى ذلك اللغوي العربي أبو الفتح عثمان ابن جنى حين عرفها بأنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"١. دعت ضرورة الحياة والتعايش المجتمعي بين الناس إلى اتخاذ مواقف وإجراءات معينة من قبل الدول والحكومات تجاه اللغات الموجودة في البيئات المعينة وخاصة حيث تتعدد الأقوام اللغوية في البيئة الواحدة، فيتم تصنيف تلك اللغات بحسب المواقف لدى القائمين بالأمر في البيئة أو الدولة وبحسب الدور أو الأدوار التي يريدون لكل لغة أن تقوم به في تلك البيئة أو الدولة. وذلك ما يمكن أن يسمى بالسياسة اللغوية للدولة. ويمكن فهم السياسة اللغوية للدولة بالنظر إلى عاداتها ومعتقداتها اللغوية أو إلى القرارات التي تعتمدها في التعامل مع اللغات الموجودة فيها.٢ وقد تتخذ الدولة قرارات صريحة عن طريق التشريعات أو أوامر سلطانية تنص على ما للغة أو لغات معينة من دور في الحياة الوطنية وكيف يجب أن يتم التعامل مع تلك اللغة أو اللغات في حدود تلك الدولة. ومثل هذا كثير جدا عند الدول التي تنص دساتيرها على مكانة لغة أو لغات معينة، و تحدد جوانب الحياة التي يتم استخدامها إما وجوبا أو جوازا أو منعا. ويمكن كذلك أن تنص على الموقف الرسمي من تعليمها وكيفية القيام بذلك التعليم. وفي بعض الحالات لاينص الدستور على شئ عن لغة أو لغات ما، ولكن النظر إلى العادات اللغوية للحكومة، تلك العادات المتمثلة في ممارساتها العملية عند تعاملها مع اللغة أواللغات تتصل بها، وكذلك النظر إلى المعتقدات اللغوية لدى

تلك الأمة يكشفان بوضوح ما تلك الدولة من مواقف رسمية تجاه اللغات.

ومن أجل المواقف السياسية للحكومات تنوعت اللغات في المجتمعات واتخذت أشكالا مختلفة بحسب ما تحدده تلك السياسات من مجالات الاستخدام تختص بكل لغة في الدول. ومن أشهر تلك التنوعات ما يلي:٣

(أ) اللغة الرسمية، وهي اللغة التي تستخدم في المجالات الرسمية للدولة كالمراسلات الادارية والوثائق المدنية والنصوص القانونية والخطابات في المناسبات الوطنية.٤

(ب) اللغة الوطنية National Language . لغة أصلية في بيئة ما (دولة معينة) يراد بها من قبل الحكومة أن تكون لغة التعامل في الوطن بأكمله، قد تكون هي اللغة الرسمية – كاللغة العربية في الشرق الأوسط – وقد تختلف عن اللغة الرسمية لإمكان أن تكون اللغة الرسمية لغة أجنبية على البلد، كحال معظم البلدان الأفريقية التي لا تزال لغات المستعمرين فيها هي اللغات الرسمية.

(ت) لغة التعليم: اللغة التي تنص اللوائح والقرارات أو تجري العادة اللغوية بأنها اللغة التي يتم التعليم بها في المدارس والمعاهد.

(ث) لغة التقنية: اللغة المستخدمة في مجال التقنية دراسة وصناعة

(ج) اللغة الفصيحة – الفصحى: ذلك النوع من اللغة الذي يعتبر النتكلمين بها أنه أصح الأنواع.

(ح) اللهجة. نوع من اللغة يختص بمنطقة بعينها.٥

٢. اللغة العربية في دولة صكتو:

دولة صكتو عبارة عن دولة تأسست على أساس إسلامي خاضع لقوانين الشريعة في المنطقة التي كانت تعرف سابقا ببلاد هوسا وهي منطقة تضم قسطا كبيرا مما يعرف اليوم بشمال نيجيريا وجنوب جمهورية نيجر. وقد دامت تلك الدولة لقرابة قرن كامل، من سنة ١٨٠٤م إلى ١٩٠٣م.٦ وكان التشكيل اللغوي لسكان المنطقة خليطا من أجناس مختلفة، لكل جنس لغته الأم، فيهم فلانيين وزرما وغيرهما. ولكن لغة هوسا هي لغة أغلبية السكان وهي اللغة الوسيطة التي يتفاهم بها جميع السكان على الرغم من جنس كل واحد منهم ولغته الأم.

دخلت اللغة العربية هذه المنطقة منذ أمد بعيد عن طريق التجار العرب وكانت العلاقة التي تكونت بين أهل هذه المنطقة وبين التجار العرب قوية جدا بحيث أصبحت لغتهم الهوساأقدم اللغات الأفريقية التي تكتب بالحروف العربية"، ٧ إلا أن انتشار اللغة العربية في المنطقة على نطاق واسع لم يتم إلا بعد ما تمكن الإسلام منها، فأسست في أنحاء المنطقة مدارس ومعاهد للدراسات الإسلامية واللغة العربية وأصبحت العربية لغة الثقافة والحضارة إضافة إلى كونها لغة الدين. ولما نجحت الحركة الاصلاحية التي قادها الشيخ عثمان بن فودي وقامت الدولة الإسلامية التي أصبحت صكتو عاصمتها، أصبحت اللغة العربية بطبيعة الحال ذات مكانة رفيعة وعالية. فإن المدارس والمعاهد العلمية تكاثرت فازدهر بذلك التعليم، وارتفع شأن المثقف العربي. فهذه دولة إسلامية فلا بد لها من اتخاذ دواوين ومحاكم شرعية ولابد من المثقفين الذين يمكنهم أن يقوموا بإدارة تلك الدواوين والمحاكم، وبما أن العربية هي لغة الثقافة في المنطقة، أصبح ذو والثقافة العربية هم رجال الدولة القائمين بإدارة دواوينها فأصبحت مكانة المرء في شؤون الدولة بقدر ثقافتة العربية الإسلامية. ولقد أثر ذلك في اللغة العربية من جهة الحكومة ومن جهة الرعية معا. فإن الحكومة بحاجة إلى الرجال الأكفاء ولا ينتجهم إلا التعليم والتثقيف وهو بطبيعة الحال باللغة العربية، لأن العرب أول أمة ذات حضارة راقية تلتقى بها الهوسا، وقد ترك ذلك أثرا واضحا في جميع جوانب حياة الهوسا وكذلك في لغتهم.٨ فقامت الحكومة بذلك خير القيام. وأما الرعية فإنهم أقبلوا على هذا التعلم والتثقف إما غبطة للمكانة المرموقة التي يحتلها المثقف العربي في الحكومة وإما حبا للعلم والتشرف به. ومن ثم ازدهر التعليم وانتشر انتشارا واسعا. وكيف لا، وقد كان مجانا لا يدفع الدارس عليه شيئا، كما كان مفتوحا يسمح للدارس التنقل بين عدد من الأساتذة في آن واحد. وأن المدارس كثيرة جدا إذ أصبح بيت كل عالم مدرسة مفتوحة الباب على مصراعيه لطلبة العلم. فتطور شأن اللغة العربية في فترة هذه الدولة وكثر التأليف فيها حتى عدها الدارسون عصر نهضة العربية في نيجيريا.٩

ومع أن اللغة العربية لم تكن لغة التخاطب العام بين الناس فإنها أصبحت مستخدمة على نطاق واسع جدا، وخاصة بين الطبقة المثقفة من العلماء والأمراء والحكام والقضاة وأصحاب الدواوين والاداريين ومن يتصل بهم ويتقرب منهم.

فهؤلاء يستخدمون اللغة العربية في إلقاء الخطب ويتكلمون بها في المناسبات الدينية، بل كثيرا ما يتخذونها لغة التخاطب فيما بينهم، وكل هذا بالإضافة إلى استخدامها لغة الادارة لدى الحكومة بحيث تكتب بها السجلات والقرارات الحكومية والرسائل الرسمية في الدواوين والمحاكم وغيرها. وبلغ الأمر عند العلماء أنهم يستخدمونها في التأليف العلمي والأدبي شعرا ونثرا. ويمكن القول بأن اللغة العربية في عهد دولة صكتو كانت تتمتع بما تتمتع به اللغة الانجليزية اليوم في نيجيريا من النفوذ وعلو الشأن. وهذه الحالة هي التي تمثلها النصوص الواردة في كتاب "سرد الكلام".

٣. كتاب سرد الكلام فيما جرى بيننا وبين عبد السلام" لمؤلفه أمير المؤمنين محمد بللو.

(أ) نبذة يسيرة عن المؤلف:

هو محمد بللو أحد أبناء المجدد الكبير الشيخ عثمان بن فودي، القاعد الأعلى للحركة الاصلاحية التي أثمرت الدولة الإسلامية التي تعرف في التاريخ بدولة صكتو. ولد محمد بللو١٠ في الفترة التي كان والده مهتما بالدعوة وكانت ولادته في ذي القعدة عام ١١٩٥هـ (١٧٧٩م) في مدينة طِغِلّ.١١ بدأ التعلم عند والديه وبعض إخوانه الكبار قبل أن يلتحق بعمه العلامة عبد الله بن فودي وغيره من كبار العلماء. كان محمد بللو موهوبا بذكاء خارق وذاكرة فذة، الأمر الذي ساعد بوضوح في تكوين شخصيته فأصبح عالما كبيرا في فنون مختلفة. ويعد من أكثر أولاد الشيخ إفادة منة على الرعم من سنه. كان عالما وأديبا ومؤرخا وطبيبا ومفسرا ومحدثا وفقيها. خلف حوالي ١٢٠ مائة وعشرين كتابا من مؤلفاته، في الإدارة والقانون والطب والتاريخ والسياسة والاقتصاد والنحو والأدب وغيرها من مجالات المعرفة.وكان في الجانب الآخر سياسيا بارعا وقاعدا عسكريا وفارسا مقداما شجاعا. قام بأدوار فعالة إيجابية في المواقع أيام الجهاد. وكان وزيرا لوالده الشيخ عثمان بن فودي. ولما قسم الشيخ الدولة إلى ناحيتين، شرقية وغربية، ولاه الإشراف على الناحية الشرقية مثلما ولّى الوزير عبد الله الإشراف على الناحية الغربية.

ولما توفي الشيخ عثمان بويع محمد بللو بالإمارة، فأصبح أول خليفة لوالده الشيخ عثمان، وكانت مدة خلافته واحدا وعشرين ٢١ عاما، استطاع من خلالها تمكين الدوله وبسط سيطرتها وكبح جماح التمرد وإطفاء نيرانه. وتوفى في يوم الخميس ٢٥ خمس وعشرين من رجب، سنة ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م) عن ٥٨ عاما من العمر، وكانت وفاته بمكان رباطه المسمى بُوُرْنُو، وهي اليوم مدينة شرقى العاصمة صكتو تبعد عنها بنحو من ٤٠ أربعين كلومترا. ويقال بأنه خلف مكتبة ضخمة حاوية على ما يزيد على ٢٠ ألف كتابا.١٢

(ب) كتاب "سرد الكلام"

عنون المؤلف كتابه بـ "سرد الكلام فيما جرى بيننا وبين عبد السلام". والكتاب عبارة عن عرض لوقائع وأحداث تاريخية معينة ذات أهمية كبيرة في تاريخ دولة صكتو، وهي أحداث خطيرة جدا، إذ ليس هناك شئ أخطر على دولة فتية تنشأ بين دولتين كبيرتين (هما غُوبِر وكَبِي) مثل الخروج على سلطانها من قبل بعض النواب القائمين على بعض المناطق فيها، الذين كانوا جزءا أصيلا في تكوينها. يحكي لنا الكتاب خروج الشيخ عبد السلام، أحد تلامذة القائد الأعلى الشيخ عثمان على هذه الدولة التي شارك في تأسيسها، وذلك بعد وفاة الشيخ عثمان وتولى محمد بلّو بعده الإمارة. ويذكر لنا كذلك ما قام أمير المؤمنين محمد بللو به لإخماد تلك الفتنة.

اتبع المؤلف في هذا الكتاب منهج السرد التاريخي في عرض الأحداث والوقائع. فإنه – كما أشار في العنوان – يعمد إلى ما جرى فيحكيه ويسرد الكلام في الأحداث سردا يربط كل حادثة بما سبقها وما لحقها من حوادث في تسلسل تاريخي تتشخص من خلاله الصورة العامة لهذه المسألة. ومن ثم لم يقسم الكتاب إلى جزئيات

والكتاب حتى اليوم مخطوط لم يتم نشره، بيد أن هناك محاولات لنسخه وإخراجه بطباعة محلية.وهي عبارة عن تصوير نسخة وإخراجها أعدادا كبيرة. ومن أمثلة ذلك ما قام به السلطان إبراهيم الدسوقي الأمير الثامن عشر من سلسلة أمراء دولة صكتو من تمويل طباعة محلية له في عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.وقد خرج الكتاب في تسع وعشرين صفحة، وكل صفحة تحتوي على خمسة عشرة أو ستة عشر سطرا، ومعدل كلمات السطر الواحد سبع كلمات ونصف كلمة.

افتتح المؤلف الكتاب بمقدمة يسيرة حمد الله فيها ثم دخل في موضوع الكتاب بذكر عنوانه. ثم بدأ بتقديم خلفية تاريخية عن الشيخ عبد السلام ذكر فيها قبيلته وأشار إلى كونه من تلامذة الشيخ

الذين أسهموا في الدعوة والجهاد فعُيّن نائبا بعد قيام الدولة على إقليم كبير يجمع سبع كور بالإضافة إلى مدينته التي يسكن فيها وهي مدينة كبيرة تشبه المدينة التي يسكن بها الشيخ عثمان، ثم بين أن الشيخ عبد السلام لم يقتنع بهذا القدر الذي ناله فحاول التغلب والسيطرة على بعض المناطق المجاورة له التي تقع تحت رعاية نواب آخرين. فلما منع من ذلك من قبل الدولة غضب ورأى أنه لم يُوف حقه في المناصب ولم يكافأ كما ينبغي، وهذا هو السبب لخروجه على السلطة في عهد محمد بللو.

ذكر المؤلف المراسلات التي قامت بين القائمين بأدوار في تلك الحوادث مكتفيا بالإشارة إليها والتعليق عليها حينا وبإيرادها نصوصا كاملة حينا آخر. ولقد أورد عشر رسائل بنصوصها كاملة، وهذه النصوص إذا أمعنا النظر فيها وثائق تاريخية كفيلة بان تعكس لنا سياسة تلك الدولة تجاه اللغة العربية في صورة واقعية عملية.

٤. اللغة العربية في دولة صكتو من خلال كتاب "سرد الكلام":

يحتوي هذا الكتاب على رسائل متبادله بين شخصيات يحتل كل واحد منهم منصبا إداريا رسميا، فالشخصيتان الرئيستان في تلك المرسالات هما محمد بللو الذي كان وزيرا مشرفا على الناحية الشرقية للدولة ثم أميرها، والشيخ عبد السلام أحد نواب الأمير على الأقاليم ثم المستقل بنفسه. ومن ثم يتوقع أن تصدر رسائلهما الرسمية باللغة التي إتخذتها الدولة لغتها الرسمية. ويمكن كذلك أن تعكس تلك الرسائل - إلى حدما - حالة اللغة العربية في تلك الدولة. وقد كانت الرسائل منذ العصور القديمة من أهم وثائق الدول السياسية، وتعد اللغة التي تكتب بها اللغة الرسمية لدى من يبعث بها. وقد عد بعض الكتاب تبادل الرسائل باللغة العربية بين العلماء الموريتانيين دليلا على اتخاذ الموريتانيين اللغة العربية لغة رسمية منذ فترة ما قبل قيام الدولة الحديثة.١٣

٥. نماذج مختارة من الرسائل

وسنورد هنا نماذج من تلك الرسائل التي يتضمنها هذا الكتاب ثم نحاول القيام بتحليلها لنثبت بذلك أن الدولة الإسلامية التي تعرف بدولة صكتوا التي قامت في بلاد هوسا بين ١٨٠٤م و ١٩٠٣م قد اتخذت فعلا اللغة العربية لغتها الرسمية، ولنوضح كذلك نمط العربية التي كانت تستخدم آنذاك، لنشير بذلك إلى الوضع العام للغة العربية في تلك الدولة. وسنقتصر على ثلاث رسائل كل واحدة منها لشخصية معينة. وسنوردها بنصوصها كاملة ثم نحاول القيام بتحليلها.

الرسالة الأولى: من محمد بلّو إلى والده الشيخ عثمان:

إلى الوالد، تحية وسلام وبعد، فباعث الرسم إليك أن تعلم أن عبد السلام استأذن في حفر الحصن لمكانه في الجهة الشمالية. فإني لم أر في ذلك بأسا لأنهم منذ نزلوا في الموضع لم نر منهم إلا الاشتغال بإصلاح المزارع والحرث ولاسيما والموضع قريب منا جدا، مع أن عبد السلام ممن ينزل معنا في هذا الحصن كما عاقدنا عليه مع سائر الوزراء. والسلام.

هذه رسالة بعث بها محمد إلى والده الشيخ عثمان، ولكن بصفته وزيرا مشرفا على الأقاليم الشرقية يبعث برسالة رسمية إلى رئيس الدولة. وهذا الموقف الرسمي طغى على العلاقة الشخصية التي بينه وبين والده. فلغة الرسالة ومضمونها وأسلوبها جميعا تتخذ الطابع الرسمي. ومع أن العربية لم تكن اللغة الأم لباعث الرسالة ولا المبعوث إليه، فإن الرسالة مكتوبة بها لأنها لغة الدولة الرسمية. وذلك بالرغم من كون اللغة الهوسا هي اللغة الوسيطة التي يتم بها التخاطب اليومي بين الناس في جميع أنحاء الدولة، وعلى الرغم من كون اللغة الفلاتية هي اللغة الأم لدى محمد بللو ووالده الشيخ عثمان.

وتتكون هذه الرسالة من ٦٤ كلمة ماعدا حرف العطف الفاء الواردة مرتين والواو الواردة خمس مرات. وماعدا كذلك حروف الجر الأحادية: الباء الواردة مرة واحدة والكاف الواردة مرة واحدة أيضا واللام الواردة مرتين.وهذه الكلمات جميعا ألفاظ عربية فصيحة شائعة الاستعمال تألفها الخاصة والعامة. وتكونت من هذه الألفاظ تراكيب سليمة بحسب قواعد اللغة العربية الفصحي. وتغلب فيها الجمل الاسمية على الفعلية من حيث الكثرة. ومعظم هذه الجمل الاسمية جمل كبرى تحتضن جملا أخرى صغرى، وذلك لأن خبر المبتدأ فيها لم يكن مفردا، إلا في الجملة الحالية: "الموضع قريب". وتصدرت كثيرا من تلك الجمل أداةُ النسخ "إنَ" في مثل قوله "أن عبد السلام". و"إني لم أر ..." و"أنهم ...".

وتتسم الرسالة في لغتها بالوضوح والتماسك شكلا ومضمونا. فالألفاظ

فيها مستعملة بدلالاتها الأصلية بعيدا عن التجوّز، وبأسلوب مباشر من غير تعقيد ولا زخرفة. وذلك ما يتناسب مع موضوع الرسالة وجوّها. فهي وثيقة إدارية بعث بها مسؤول إلى رئيسه يستأذنه في بعض القرارات التي ينوي اتخاذها. فهذا جوّ لا يقبل إطنابا ولا إيجازا مخلا بالمعنى ولا غموضا في رسالتها. ومن ثم جاء الخطاب (الرسالة) نصا مقتضبا.

ويتجلى تماسك هذه الرسالة في ترتيب جملها وتسلسلها المنطقي. وفي ترابطها فيما بينها بعضها بالبعض. فترى الجملة اللاحقة ترتبط بالسابقة إما بالعطف أو بالإشارة أو بعودة الضمير أو بتعلق شبه الجملة (الجار والمجرور). كما ترى الجملة التالية أتت لزيادة المعلومات على ما تضمنته سابقتها، فتوضح ما أشارت تلك إليه أو تعلل الحكم الذي فيها.

الرسالة الثانية: من أمير المؤمنين محمد بلو إلى الشيخ عبد السلام.

بسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على النبي الكريم. الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى. منا إلى الشيخ عبد السلام. تحية وسلام، أما بعد، فقد وصل إلينا كتابك جوابا على كتابنا الذي كتبه منشئ الورقات لأجل أهل الشكايات. وانفق أني لم أقف عليه حتى أعرف صيغته وصوبه وجهته. فقد وقفت على كلامك في الجواب وهو كلام صوابه مستقيم لا ينكره من له قلب سليم. وانتشار الظلم في هذا الأوان أمر ظاهر والفساد فيه متكاثر، غير أن إطلاق الحكم عليه في كل نازلة حتى يثبت الظلم لامكان تخلقه فيه. قال أحمد الزروق في قواعده: "قاعدة: ما يجري على العموم قد ينتقض في الخصوص، بل الموجود ذلك". ثم قال: "والذم على العموم لايتناول من خلا عن سبيله".انتهى

ومعلوم أن الذمي إذا خرج لدار الحرب ناقضا للعهد من غير ظلم لحقه حربي إجماعا. قال ابن عبد السلام في قول ابن الحاجب في مختصره: "إذا خرج الذمي ناقضا للعهد فحربي". قال: يعني إذا خرج الذمي مريد السكني بدار الحرب تاركا لما كان عليه من العهد والذمة فإنه لايترك وما أراده، بل يقاتل كما يقاتل الحربي، فإن قتل فهدر. وهذا صحيح ولا أعلم فيه خلافا. "انتهى كلامه.

وأما إن خرج بظلم فلا يسترق على المشهور كما في الكتاب، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ولا حول ولا قوة إلا بالله، العلي العظيم. والسلام.

هذه الرسالة أيضا من محمد بللو بن الشيخ عثمان بن فودي، ولكنه حينئذ صار رئيس الدولة وأمير المؤمنين بها بعد وفاة والده الشيخ عثمان. بعث بالرسالة إلى الشيخ عبد السلام أحد تلاميذ والده الشيخ وأحد النواب على الأقاليم، وممن بايعه على الامارة بعد الشيخ عثمان. هذه الرسالة رد لرسالة سابقة كتبها إليه الشيخ عبد السلام يشرح فيها موقفه ويبرر الإجراءات التي اتخذها في حق بعض من شكوه إلى أمير المؤمنين على ما انتزع منهم من حقوقهم في منطقة سلطانه. وقد حاول في ذلك أن يتهم السلطة المركزية بالظلم والزيغ عن النهج القويم.

تختلف هذه الرسالة عن السابقة موضوعا وظرفا وجوّا، فلذلك اختلفت عنها كمًّا ولغةً وأسلوبا وفكرةً. فكاتبها يحمل الآن على عاتقه أعباء الدولة. وهي في تلك الفترة تمر بظروف صعبة جدا طرأت نتيجة وفاة الشيخ عثمان القاعد الأعلى للحركة التي أسست هذه الدولة. ويحدث هذا كثيرا في تاريخ الدول. وقد بدا لهذا الأمير الجديد أن الشيخ عبد السلام يريد استغلال هذه الظروف لصالح نفسه، بناء على يعرفه عنه سابقا وما يصله من الأخبار عما هو عليه حينئذ، فلابد من رد تهمه وإبطالها بالحجة والدليل، ولابد كذلك من كفه عما يريد على الرغم من حال الضعف الذي تمر به الدولة، ولعل هذا هوسبب الرفق والتلطف معه ومحاولة استمالته في الرسالة.

والرسالة تتكون من ٢٢٤ كلمة ماعدا حرفي العطف الواو والفاء وحروف الجر الأحادية. وتلك الكلمات أيضا ألفاظ عربية فصيحة شائعة الاستعمال في تراكيب سليمة تم صياغتها في اسلوب خبري تمشيا مع موضوع الرسالة وجوّها. فإنه بحاجة إلى تقرير المسائل على وجوهها الصحيحة وإثباتها بحججها وأدلتها الواضحة القوية، حتى تُقدم للمخاطب معلوماتٌ مقنعة. تحقيقا لما سماه البلاغيون فائدة الخبر.

ونص الرسالة خليط بين الجمل الاسمية والفعلية، وأغلبها جمل كبرى، كما يوجد فيها عدد من الجمل الشرطية وخاصة فيما نُقل من النصوص للاستدلال.

وأثبتت الرسالة فيما يعلق بسياسة الدولة تجاه اللغة العربية، وجود مكتب إداري اسمه: منشئ الورقات لأجل أهل الشكايات، يهتم بكتابة الرسائل إلى الجهات المعنية – كالنواب، طلبا لإنصاف من يتقدم بشكايا. والذي يهمنا هنا هو اتخاذ ذلك المكتب العربية لغة لكتابة

رسائله كما يشير إلى ذلك الرسالة التي كتبت إلى الشيخ عبد السلام. وهذا يثبت أن اللغة العربية هي بحق لغة الدولة وأن استخدامها في شئون الدولة ليس قاصرا على الرؤساء فقط بل حتى من دونهم من الاداريين.

الرسالة الثالثة : من الشيخ عبد السلام إلى أمير المؤمنين محمد بللو.

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله على النبي الكريم وعلى آله وصحبه الذين انتهجوا نهجه القويم. فمنا إليكم، تحية وسلام. أما بعد، هذا شعر:

ولا نبتغى قوما ولا ندعواهم
جميعا وما كنا نحب المناصبا
وإن مال فينا مائل لا نرده
ولا نستغيث بواحد كي لنغلبا
وفي حكم الله اعتبار وفكرة
على الخلق إن لأمر ربي عجائبا
فلله حمد أولا ثم آخرا
على نيل ما في كتبه كنت ناظما

فاعلموا يا إخواننا أننا نوثر الوفاق والائتلاف ولا نختا الشقاق والاختلاف إلا في من خالف الق أيا كان. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

هذه الرسالة من الشيخ عبد السلام إلى أمير المؤمنين محمد بللو. و لعلها آخر ما يكتبه إليه،إذ ظهرت منه كل علامات الخروج على الدولة، وبدا استقلاله بمنطقته، إذ كان يقيم علاقات خارجية بمناطق تعد آن ذاك دار الحرب، من غير الرجوع إلى أمير المؤمنين. بل كانت كثيرٌ من تلك العلاقات تضر بالمسلمين في الدولة حتى كثرت الشكايا ضده، فكتب إليه أمير المؤمنين كتابا يذكر له تلك المخالفات التي قام بها والأفعال الكبيرة التي ارتكبها مما يعد خيانة للدولة وخروجا عليها، ويدعوه إلى العودة ونبذ الخلاف، ويعتذر إليه على ما يعتبره انتقاصا من حقه، فأخبره بأنه قط لم يجهل مكانته وقدره ولا أنكرهما، و وعده بأنه كلما وجد المُكنة سيقطع له من الأرض حظا وافرا. ووصل الكتاب إلى الشيخ عبد السلام ولكنه لم يجب، بل تمادى في تعزيز استقلاله وبناء علاقاته بالآخرين خارج الدولة. فكتب إليه الأمير محمد بللو كتابا آخر يهدف به قطع الأعذار منه. فطلب منه بحسم موقفه إذ لا يمكن الاستمرار على هذه الحال، ويحمله التبئات المترتبة على ذلك.

وردا على ذلك الكتاب كتب الشيخ عبد السلام هذه الرسالة. وهي من حيث لغتها شبيهة بالرسالتين السابقتين من حيث سلامة التراكيب واستخدام الألفاظ الفصيحة بدلالاتها الأصلية والبعد عن الزخرفة والمجازات. وتتكون من حوالي ٩٤ كلمة ماعدا حرف العطف وباء الجر ولامه. وبعد المقدمة المتضمنة على البسملة والصلصلة والتحية، شرع في الرسالة وأتى بأربعة أبيات يدافع بها عن مواقفه، منظومة على البحر الطويل:

فعول مفاعيل فعول مفاعل
فعول مفاعيل فعول مفاعل

ومع أن هذه الأبيات لا تنبئ عن قريحة إبداعية، وأنها مختلة الموسيقى، فإنها تشير إلى علو مكانة اللغة العربية في هذه المنطقة آن ذاك، إذ في ذلك دلالة على مستوى التثقف بها (اللغة العربية) الذي وصل إليه أهل تلك المنطقة من العلماء. ذلك لأن شعر العلماء كما يقول كثير من النقاد – بل وحتى نقدهم – خال في الغالب عن الابداع. ويؤكد ذلك كلام الجاحظ في استحسان أبي عمرو الشيباني قول القائل:

لا تحسبن الموت موت البلى
وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا
أفظع من ذاك لذل السؤال.١٤

حسم الشيخ عبد السلام موقفه بما ذكره بعد أبياته، مشيرا في ذلك إلى انشقاقه. بيد أنه أرجع ذلك إلى ما اتهم به السلطة المركزية من مخالفة الحق.

ويلاحظ في هذه الرسالة شدة لهجتها على خلاف الرسالتين السابقتين (وخلاف رسائله التي أوردها المؤلف في هذه الكتاب). فالأبيات هنا مليئة بالتهم موجهة إلى السلطة المركزية يتقدمها مقدمة وتحية واضحة القساوة لا تتناسب مع منصب أمير المؤمين رئيس للدولة. ثم يأتي بعدها (الأبيات) جزء ختامي جاف ينبئ عن عدم اعتراف الشيخ بسلطة الأمير عليه. "فاعلموا يا إخواننا " بل إنه لا يكترث لمنصبه كثرا في ما كان يقوم به من أفعال. "إلا من خالق الحق أيا كان."

الخاتمة :

حاولنا في الصفحات السابقة أن نقف على سياسة دولة صكتو تجاه اللغة العربية في القرن التاسع عشر الميلادي من خلال كتاب سرد الكلام لأمير المؤمنين محمد وما حواه من الرسائل. واتضح من النماذج التي أخذنا أن تلك الدولة قد اتخذت العربية عزيزةً رفيعةً، فهي لغتها الرسمية التي تستخدمها بحق في مهامها الإدارية بحيث أن الابن والأب لا يتراسلان في المواقف الرسمية إلا بها، على حساب اللغة الأم لديهما وعلى حساب اللغة الهوسا التي

كانت هي اللغة الوسيطة (lingua franca) المستخدمة في التخاطب العام بين الناس في جميع أنحاء الدولة. كما اتضح أن ذوو الثقافة العربية هم أصحاب النفوذ في الدولة بتوليتهم مناصبها الإدارية. ويبدو أن المعرفة باللغة العربية شرط لكثير من تلك المناصب آنذاك. وهذا – بالطبع – مما مكن العربية من التطور و الانتشار في أنحاء الدولة. وقد رأينا كذلك من خلال تلك النصوص التي اتخذناها نماذج أن النمط الذي كان مستخدما في تلك الدولة هي اللغة العربية الفصحى. ويمكن القول – نظرا إلى تلك الحالة الرفيعة للغة العربية – أنه لولا ما حل بهذه المنطقة من الاستعمار البريطاني البغيض، و شنه من حرب شرسة على اللغة العربية، لأصبحت هذه اللغة اليوم في المكانة الثانية بعد الهوسا في الانتشار والتوسع.

الهوامش والمراجع:

١ – ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص، (ح) محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ١٩٥٧م، ٣٣/١.

٢ – Danladi، Shuaibu Sunday، "Language Policy:Nigeria and the role of English language in 21st century." European Science Journal، Vol ٩:١٧، ٢٠١٣، p.٤.

٣ – حجازي، محمود فهمي، علم اللغة العربية، وكالة المطبوعات، الكويت، (د. ت.) ص. ١٩.

٤ – أوفى، محمد مصطفى، اللغة الرسمية ... بين مقتضيات الدستور وأحلام الفرنكفونيين، مدونة محمد مصطفى أوفى: https//aufa.wordpres.com، تاريخ الزيارة: ٢٠١٥/١٢/٢٩م.

٥ –حجازي، المرجع السابق، ص ١٩–٢١.

٦ – غلادنثي، شيخو أحمد سعيد، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ط٢، شركة العيكان للطباعة والنشر،الرياض، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص ٧٥.

٧ – غلادنثي، المرجع السابق، ص ٣٦.

٨ – Danzaki، M. A.، "Semantic Change in Arabic Loanwords in Hausa،" E-Journal of Arabic Studies and Islamic Civilization، Vol. ٢، ٢٠١٥، p.١٢٧.

٩ – غلادنثي، المرجع السابق، ص ٧٤.

١٠ – بللو كلمة فلانية و معناها "المساعد"

١١ – Talata-Mafara، Muhammad Isa، Daular Usmaniyya، Nadabo Print: Sokoto، ١٩٩٩، pp. ٣٣٣-٣٣٤.

١٢ – ماندي فارو، (جامع)، مختارات من مؤلفات أمير المؤمنين محمد بلو، دار اقرأ: كدونا،٢٠١٣م، ص . xvi

١٣ – أوفى، محمد مصطفى، المرجع السابق.

١٤– الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، الحيوان، (ح) عبد السلام محمد هارون، دار الجيل: بيروت، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م، ١٣١/٣.

الملحق رقم ١ . صورة الغلاف للنسخة التي مول السلطان إبراهيم الدسوقي إخراجها بأعداد كبيرة

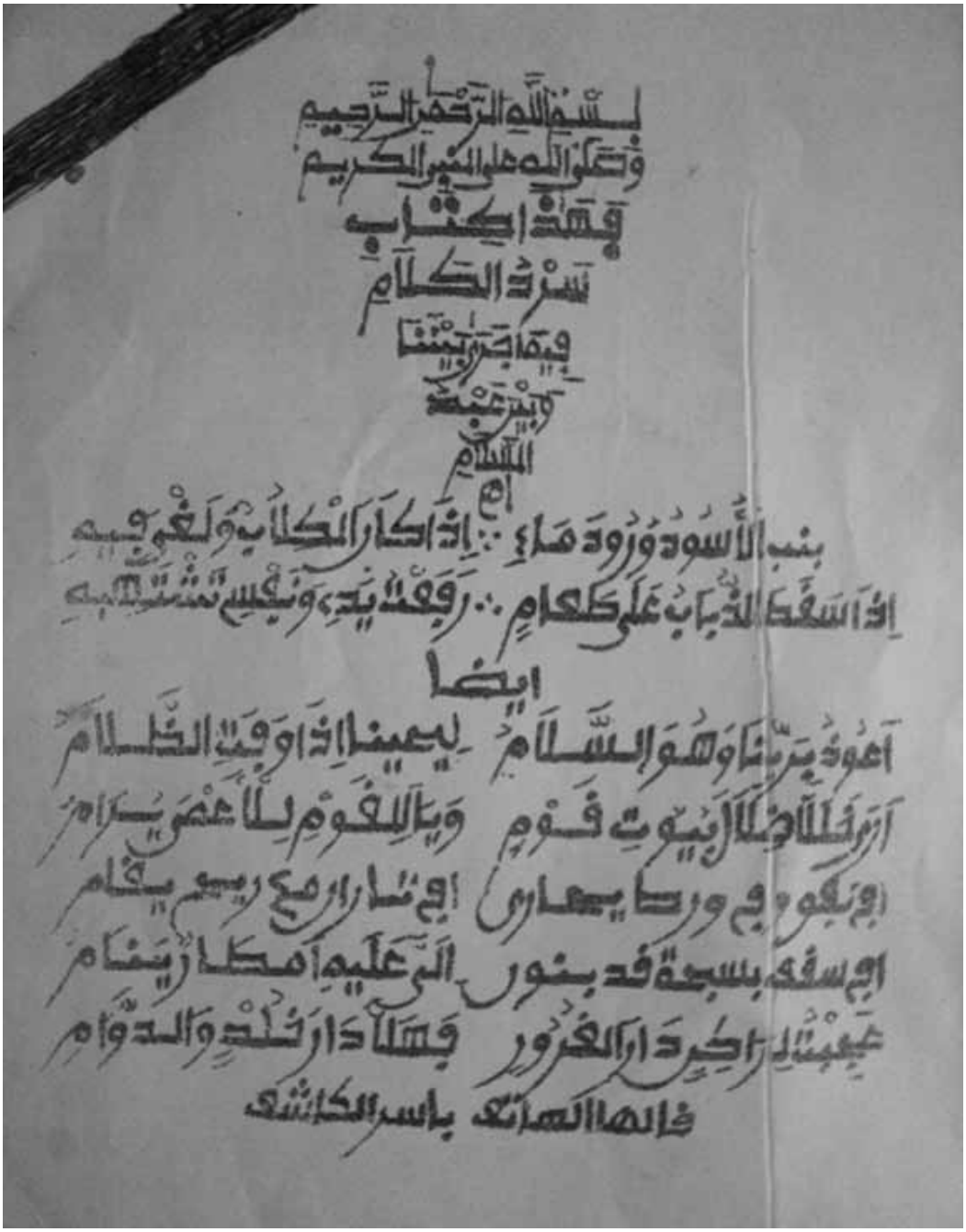
بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على النبي الكريم
وهذا الكتاب
سرد الكلام
وبقايا بيتنا
وبين عبده
السلام
ام
بنت الأسود ورود ماء :: إذا كان الكلام ولغو فيه
إذا سقط الذباب على كلام .. رفعت يدي ونكست نشتي به
ايضا
أعوذ بربنا وهو السلام ليعينا إذا وقت الظلام
أرى الله لا أبيوت قوم ويا للقوم لا عصي يرام
إبو بكر بن ورطا يعاري إبي نار مع ريم يقام
إبي سفه بسبحة قد بنوس الى عليه أمكار يقام
عجبت لراكن دار الغرور فسلا دار لخلد والدوام
قالها العارف باسر الكاشف

الملحق رقم ٢. الصفحة الأولى من النسخة المذكورة نفسها.

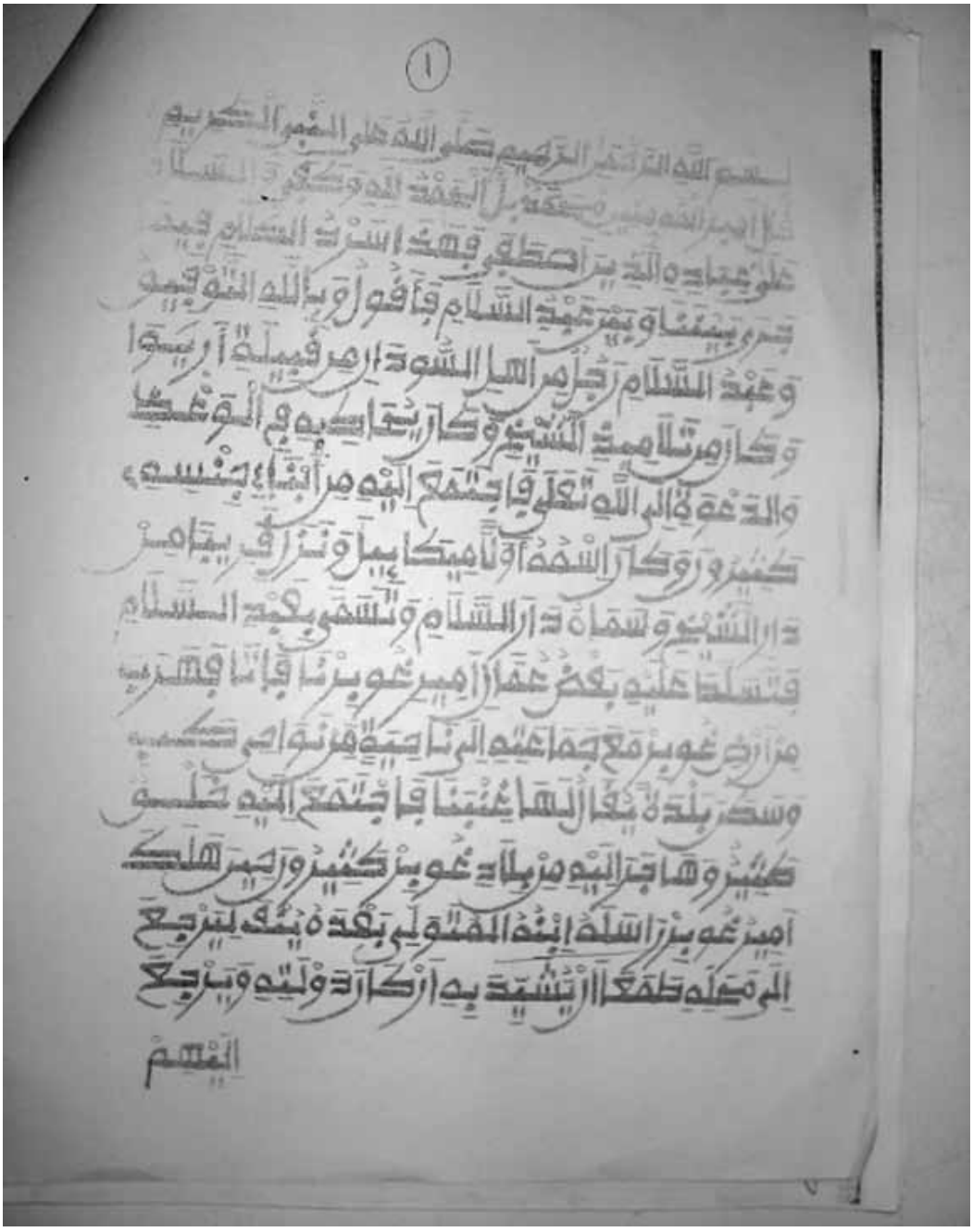

الملحق رقم ٣. الصفحة الأخيرة من النسخة المذكورة نفسها